الضياع الأموية في الشام
في العصر العباسى

بقلم : أ. د. عبدالمنعم ماجد
أستاذ التاريخ الإسلامى،
والخبير الوطنى لمركز الدراسات البردية
بجامعة عين شمس

وجد ديوان الضياع[1] فى عهد العباسيين ؛ لينظر أصلا فى أمر الضياع التى كانت فى حوزة الأمويين فى الشام «ضياع بنى أمية»[2] . فكان ظهوره يعنى أن العباسيين قد قضوا نهائيا على الأمويين، وأنه أصبحت لهم السيادة الكاملة على ممتلكاتهم . فهو ثمرة للانتصار الحربى ، والتفاعل النفسى عند العباسيين نحو الأمويين .

ومع أن البحث عن تفاصيل هذا الديوان أو غيره ؛ ليس بالأمر السهل ؛ لأن المادة التاريخية تكون عادة متوفرة لسرد تاريخ الحروب؛ إلا أنها تكون قليلة ، أو حتى نادرة ؛ لنظم الدولة السياسية . ومع ذلك ؛ فإن هذه المادة القليلة عن هذا الديوان ، مكنتنا من القبض على الخصائص والأهداف، التى استوجبت ظهوره ؛ ولا سيما أن المؤرخ يضخم المادة التاريخية المتاحة بحيثياته .

ولا شك أن الحفر وراء ظهور ديوان الضياع العباسى؛ يبيّن قبل كل شىء ؛ علاقته الوثيقة بالجهاز الادارى فى دولة العباسيين، الذى اتخذ شكلا بيروقراطيا ملحوظا؛ بهدف أن الأوامر الادارية تصدر عن العاصمة بغداد وحدها إلى الأقاليم. حقا إن كلمة ديوان فارسية الأصل، وتعنى الكتّاب والحيز المكانى الذى يجمعهم، وأن عمر بن الخطاب (١٣ - ٢٣ / ٦٣٤ - ٦٤٤) ؛ هو أول من عمل بنظام الدواوين الفارسى ؛ فقيل إن عمر دوّن الدواوين[3]، وهى التى انتقلت فى عهد

---

(١) الجهشيارى ، كتاب الوزراء والكتّاب ، تحقيق السقا والأبيارى ، ط ١ ، القاهرة ١٣٥٧ / ١٩٣٨، ص ٢٧٧ ؛ انظر Ency of Isl (art DIWAN) 2ed , T. 2, p. 324 .

(٢) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ٩ ص ٣٠٨ س ١٨ .

(٣) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ١٧٥ .

الأمويين من المدينة إلى دمشق ، ثم عربها[1] عبد الملك بن مروان (ت ٦٥ - ٨٦/ ٦٨٥ - ٧٠٥) ؛ بعد أن كانت تكتب بلغات الشعوب المفتوحة ؛ إلا أن التنظيم الديوانى البسيط، فى عهدى الراشدين والأمويين ؛ قد تضخم تضخما كبيرا على يد العباسيين .

ومع ذلك ؛ فإن ظهور ديوان الضياع العباسى ارتبط قبل كل شىء بالنظام المالى العباسى ، الذى قام على أنقاض النظام المالى السابق فى عهد الأمويين . فكانت الدولة العباسية بأيدولوجيتها من الشعوبية، التى قامت على أكتافها ، ولاسيما الفرس ؛ لديها القدرة على استيعاب أنظمة مالية جديدة. فديوان الضياع لم يكن له وجود قبل العباسيين؛ كما لم يكن للعباسيين ضياع من قبل .

وقد ظهر ديوان الضياع العباسى؛ بظهور دولة العباسيين فى عهد أبى العباس السفاح (١٣٢ - ١٣٦ / ٧٥٠ - ٧٥٤) ، أول الخلفاء العباسيين، باسم : ديوان المحجوزة [2] ؛ ليعنى الحجز على ممتلكات الأمويين ، بما فيها ضياع الخلفاء الأمويين وأفراد أسرتهم. فلدينا نص يقول[3] : إن أبا العباس استولى على ضياع مروان وآل مروان. ولكن فى عهد أبى جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨ / ٧٥٤ - ٧٧٥) ، الذى اعتبر المؤسس الحقيقى للدولة العباسية، وتسلسل عنه بقية الخلفاء العباسيين ، وليس عن أخيه، ظهر هذا الديوان باسم : ديوان الضياع [4]؛ ليعنى فى مضمونه ، مثلما كان يعنى فى عهد سلفه؛ مصادره ضياع الأمويين فى الشام ؛

(١) كتب ديوان الجند بالعربية ؛ منذ عمر بن الخطاب .

(٢) الجهشيارى ، ص ٩٠ ؛ انظر : ماجد ، العصر العباسى الأول ، ط ٣ ، ١ ص ١١٠ .

(٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

(٤) الجهشيارى ، ص ٢٧٧ ؛ وقبله .

لحساب العباسيين . حقا إنه وجد فى عهد المنصور ديوان آخر للمصادرة [1]؛ ولكنه لم يكن له علاقة بضياع الأمويين ، وإنما بالأولى بمصادرة ممتلكات أعدائه السياسيين، وهم كثيرون .

كذلك لا نظن بأن عمل ديوان الضياع العباسى، والدولة ناشئة ، اقتصر على مصادرة الضياع الأموية وحدها ، وإنما امتد نشاطه إلى مصادرات أخرى ؛ فقد ذكر أنه : استصفيت أموال الأمويين[2] . فقد كان للأمويين اقطاعات عديدة؛ حدثت لهم فى الشام ؛ منذ عهد عثمان بن عفان (٢٤ - ٣٥ / ٦٤٤ - ٦٥٦) ؛ فيما عرف بأرض الصوافى [3] ؛ وهى أرض امتلكها العرب من الروم ، وأصبح أمرها للخليفة الأموى[4]، يقطع منها ما يشاء . ومن بعد قام معاوية ابن أبى سفيان ؛ بمسح شامل لأرض الصوافى فى بلاد الشام، واستصفى لنفسه ، وأقطع أهل بيته بل فى عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ / ٦٨٥ - ٧٠٥) ؛ من كثرة ما اقطع من أرض الصوافى؛ لم يبق شاغر فى الشام[5] .

فكان ديوان الضياع العباسى ، مثل غيره من الدواوين العباسية الأخرى ؛ يوجد فى بغداد العاصمة؛ بالعراق. فالادارة فى الدولة العباسية إدارتان ؛ ادارة مركزية فى العاصمة ، وأدارة خاصة فى الأقاليم؛ وإن كانتا مرتبطتين. ولذلك اهتمت الدولة

---

(١) اليعقوبى ، تاريخ ، ٣ ص ١٢٧ ؛ ابن طباطبا ، الفخرى ، ص ١١٥ ؛
انظر . Ency of Isl , T. 2 p. 324 .

(٢) الطبرى ، ٩ ص ٣٠٨ س ١٤ .

(٣) ابن عساكر، التهذيب لابن بدران ، ١ ص ١٨٣ .

(٤) ابن عساكر ، التهذيب لابن بدران ، ١ ص ١٨٢ .

(٥) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٣٤ .

العباسية بالبريد[1] ووسائله ومحطاته والطرق المؤدية إلى الأقاليم، التى عرفت باسم: المسالك ؛ لربط بغداد العاصمة بالأقاليم. كذلك وجد فى عهد محمد المهدى العباسى (١٥٨ - ١٦٩ / ٧٧٥ - ٧٨٥) ، دواوين الزمام وزمام الأزمة [2]؛ لمراقبة الأموال فى الدواوين العباسية جميعها؛ بما فيها أموال الأقاليم؛ حيث وجد ديوان باسم: ديوان زمام الشام [3]. وربما كان الإشراف على ديوان زمام الأزمة ، وهو فى العاصمة ؛ للوزير ، الذى كان منصبه غير موجود فى العصر السابق ؛ إلا على سبيل المجاز .

وثمة أمر آخر أن ديوان الضياع العباسى لم يكن مقطوع الصلة بديوان الخراج[4] فى العاصمة بغداد، وهو يتعلق بضريبة الأرض ، حيث نشأت مجموعة من الدواوين تتبعه، منها ديوان خراج الشام[5] ، الذى اعتبر فرعا له فى الشام ، وكان المنصور يوليه لأهل الشام[6]. ولم يكن ديوان الخراج قبل المنصور ديوانا، وإنما يعبر عنه ببيت المال[7] ، الذى صار هو الآخر ديوانا؛ يجتمع فيه الفائض من الموارد

---

(١) الجهشيارى ، ص ١٠٠ - ١٠١ ؛ الفخرى ، ص ١٤٨ ؛ صبح الأعشى ، ١٤ ص ٣٩٥؛ انظر : سعداوى ، نظام البريد فى الدولة الإسلامية ، القاهرة ١٩٥٣ ؛ Ency of Isl (art BARID) 2 ed, T I , p. 1045 sqq

(٢) الجهشيارى ، ص ١٤٦ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ؛ الطبرى ، ١٠ ص ١١ ؛ فتوح البلدان ، ص ٤٦٤ . ظهر ديوان الزمام فى عام ١٦٢ / ٧٧٨ ، أما ديوان زمام الأزمة فى ١٦٨ / ٧٨٤ .

(٣) الجهشيارى : ص ١٦٨ ؛ خليفة بن خياط ، تاريخ ، ٢ ص ٤٧٤ ، ٤٨٠ .

(٤) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٨٠ - ٨١ ؛ انظر Ency of Isl (art Kharadj) 2ed, T 4 , p. 1030 sqq. هى كلمة سريانية الأصل استعربت .

(٥) الجهشيارى ، ص ٧٧ . كفله المنصور لصالح بن علىّ ؛ مع خراج مصر وإفريقية .

(٦) الطبرى ، ٩ ص ٢٩٧ س ١١ .

(٧) الجهشيارى ، ص ٢٧٧ . بعامة ، انظر .
Ency of Isl (art Bayt al - Mal) 2ed. T I , p. 114 sqq.

العامة، أو الصوافى من المال والبضائع، بل وجد بجانبه ديوان لهذه الصوافى؛ وهى الباقى عن حاجة الإقليم من النفقات المحلية؛ كأعطيات الجند، وما يلزم لحفظ الطرق، وصيانة المرافق العامة . فثراء الدولة يقاس عادة على أساس ما يتبقى لها من مال؛ على سبيل الاحتياط.

فالضياع والأقاطيع فى الشام هى أرض، والأرض تفرض عليها ضريبة الخراج. فكل قطعة أرض عليها بالضرورة مقدار من المال؛ حسب التشريع المالى فى الدولة الإسلامية. فكان الخراج أو ضريبة الأرض يفرض بالمساحة منذ أيام الخلفاء الأوائل، ثم أصبح يدفع بالمحصول منذ عهد المهدى العباسى، وهو ما عرف بطريقة المقاسمة[1]. ويؤكد على ذلك أن بعض أهالى الضياع من المزارعين بفلسطين، كانوا قد هجروها؛ فأرسل إليهم هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ / ٧٨٦ - ٨٠٩) ، قائده هرثمة بن أعين لعمارتها؛ على أن يخفف عنهم الخراج ؛ فعرفوا بأصحاب التخفيف [2]. فقد كان من يعمل فى ضياع الشام ، من أهل الشام ؛ حيث أن عرب الشام لم يعودوا مشغولين بالحروب . وتوجد ملاحظة بخصوص أرض الشام للكاتب الفارسى المعروف ابن المقفع[3] (حوالى ١٣٩ / ٧٥٦)، الذى عمل من قبل فى دواوين

---

(١) أبو يوسف ، الخراج، ص ٤٣؛ فتوح البلدان ، ص ٢٨٠ - ٢٨١؛ الماوردى ، أحكام ، ص ١٣٤ ؛ انظر الريس ، الخراج ، ص ٤٣٠ ؛ الخضرى ، محاضرات ، ص ٢١ .

(٢) فتوح البلدان ، ص ١٥٠ .

(٣) وهو من أهل جور، قرب شيراز؛ عمل لابن هبيرة والى العرق، من قبل الأمويين. الجهشيارى ، ص ١٠٩ ؛ انظر . Ency of Isl (art Ibn al - Mukaffa) 2ed. T 3 . p. 1883 - 5 .

الأمويين بالعراق ، فى رسالته للمنصور المعروفة : برسالة الصحابة[1]، يقول فيها: ومن العدالة أن تترك واردات خراج الشام لمتطلبات أهلها، وإرسال ما تبقى لبيت المال.

وقد استمر وجود ديوان الضياع فى عهود خلفاء المنصور؛ مما يبين أنه قد أصبح من أسس نظام الدولة العباسية؛ فقد وجد ديوان الضياع[2] فى عهد هارون الرشيد. وفى عام ٩٢٧/٣٢٥، أي حوالى زهاء قرنين من الحكم العباسى، وجد ديوان باسم: الضياع الخاصة والمستحدثه[3] ؛ مما يعنى الضياع العباسية السابقة، وما استحدث من ضياع بعد ذلك. كذلك بقى لديوان الضياع العباسى على طول حقب الحكم العباسى ؛ مضمونه فى شكل المصادرة، الذى وجد له منذ قيام الدولة العباسية. ففى عام ٩١٣/٣٠١، وجد ما سمى بديوان الضياع المقبوضة[4] ، أو ديوان المصادرة[5] .

فكان ديوان الضياع العباسى، مثل غيره من الدواوين فى بغداد عماده كاتب

---

(١) نشرت فى جمهرة رسائل العرب؛ لأحمد زكى صفوت، ٣ ص ٢٥ وما بعدها؛ انظر . الريس ، الخراج ، ص ٤١٢ - ٤١٤ .

(٢) الجهشيارى ، ص ٢٧٧ .

(٣) الصابى ، الوزراء ، ص ١٢٣ - ١٢٤ ؛

انظر Ency of Isl (art DIWAN) 2ed , T. 2, p. 325 .

(٤) الصابى ، الوزراء ، ص ٢١ ، ٣٠ : مسكويه ، تجارب ، ١ ص ٨٤؛

انظر Ency of Isl , T. 2, p. 325 .

(٥) الصابى ، الوزراء ، ص ٣٠٦ ، ٣١١ .

الديوان ، وهو من أرباب الأقلام ، وعرف عادة باسم : وكيل الضيعة[١] ، وهو فى العصر العباسى الأول كان من مواليهم الفرس[٢] ؛ وإن كان اختياره أصبح يتوقف على خبرته فى شئون المال، ومعرفته بالتقنية الزراعية ؛ لأن الضياع أصلها مزارع . ومن المعروف أن الشام تعد بأراضيها من أخصب البقاع المزروعة؛ فقد اعتبرت جنة الأرض[٣] للعرب الفاتحين الأوائل، وفضلوها على الحجاز، وبقوا فيها. ولما أصبحت الشام دار خلافة فى عهد الأمويين؛ فإن أرضها استغلت أعظم استغلال[٤]؛ فالأراضى تتميز إذا اعتنى بها. فقد ظهرت عناية فائقة من خلفاء الأمويين؛ بوسائل الري، التى تساعد على الانتفاع بمصادر الماء . فتوجد فى الشام أنهار كبيرة وأخرى صغيرة عديدة؛ مثل : بردى، والعاصى ، والأردن، وقويق ، وأبى فطرس ، وغيرها. كذلك أحتفرت القنوات[٥] ، واهتم بالترع، والآبار، والعيون المائية، وببناء صهاريج الأمطار[٦] .

---

(١) الجهشيارى ، ص ١٨٠ .

(٢) أولهم مولى أبى العباس ، عمر بن حمزة . الجهشيارى ، ص ٩٠ ؛

انظر Ency of Isl (art Katib) 2ed , T 4 , p. 756 .

(٣) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ١١٨ س ١ وما بعدها ؛ انظر . ماجد ، الدولة العربية ، ١ ص ١٨٥ - ١٨٦ .

(٤) صبح ، ٤ ص ٨٦ - ٨٧ .

(٥) معجم البلدان ، ٣ ص ٤٨ ، ٤ ص ٤٧٠ .

(٦) فتوح البلدان ، ص ١٤٩ .

فكانت الضياع الأموية فى الشام ، التى استولي عليها العباسيون كثيرة ومنتشرة فى كل مكان؛ حيث أشار إلى ذلك البلاذرى فى عدة مواقع [١]. بل إن المنصور أمر مهندسين له بتصويرها[٢] ؛ فصوروها ، وعرضوها عليه؛ حتى لا يفلت منها شيء. كذلك أمر المنصور بإحصاء أراضى الشام، وأرسل إلى دمشق إسماعيل بن عباس «عدّل أراضيها[٣]» . فكان مسحها بذراع - وهو مقياس للأرض - سمى الهاشمية[٤] ؛ نسبة إلى أسرتهم . فكان ما يثبت منها فى الدواوين فى عهد المنصور، يكون عادة فى صحف ؛ فقد ذكر القرطاس والقراطيس[٥] ؛ وهى تسمية للفائف البردى المصرية ، التى كان يكتب فيها؛ ولكنها أصبحت فى دفاتر[٦] منذ عهد الرشيد، ربما لظهور صناعة الورق. ولعل السبب فى إحصاء الأراضى فى عهد المنصور؛ على حسب ملاحظة أخرى لابن المقفع[٧] ؛ أن فترة الانتقال بين الدولتين ؛ الأموية والعباسية؛ قد أضاع الأوراق الخاصة بالأراضى، ولاسيما فى الأقاليم .

وقد كثر استخدام لفظة «الضياع» ، ومفردها «ضيعة» ، فى الشام منذ عهد

---

(١) نفسه ، ص ١٥٧ - ١٥٨ ؛ انظر : الريس ، الخراج ، ص ٣٦٤ وما بعدها .

(٢) الجهشيارى ، ص ١٢٣ .

(٣) نفسه ، ص ٢٧٧ .

(٤) الماوردى ، الأحكام ، ص ١٣٧ ؛ انظر : صبحى الصالح ، نظم ، ص ٤١٣ .

(٥) الجهشيارى ، ص ١٠٢ ، ١٣٨ .

(٦) نفسه ، ص ٨٩ ؛ بعامة : Ency of Isl (art Daftar) 2ed, T2 , p. 77.

(٧) الجهشيارى ، ص ١٠٩ ؛ جمهرة رسائل العرب، ٣ ص ٢٥ وما بعدها .

معاوية؛ وإن أطلق عليها الزراعة»[1] أيضا ؛ لتعنى المزرعة. ومع ذلك : فلم تكن الضياع الأموية فى الشام أرضا للزراعة فقط ؛ وإنما دور وقصور وبساتين؛ حيث اشتهرت الشام فى وقت الأمويين بالبستنة. فشمل العمران فى عهد الأمويين البادية والحضر، واستحدثت المدن الجديدة ، بما فيها عواصمهم الصحراوية ، وامتلأت دمشق ذاتها بالقصور والدور والبساتين الكثيرة[2] .

فكانت الضياع التى استولى عليها العباسيون من الأمويين ؛ تعرف «بضياع الخلافه[3]» ؛ وهى الضياع النفيسة[4] ؛ كما أعطى البعض[5] لأفراد أسرة الخلفاء العباسيين، الذين أصبح يطلق عليهم الأشراف[6]؛ حيث كانت تجرى لهم فى دواوين الدولة الإموال ، أو ما عرف بعطاء الذرية[7] . كذلك وجد فى عهد العباسيين[8] بيع

---

(١) الكامل ، ٥ ص ٤٩٧ .

(٢) ابن عساكر ، تهذيب بدران ، ٦ ص ٥٥؛ اليعقوبى ، البلدان، ص ٣٢٦ .

(٣) فتوح البلدان ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

(٤) الجهشيارى ، ص ١١٠؛ معجم البلدان ، ٤ ص ٣٢١ .

(٥) فتوح البلدان ، ص ١٥٧ - ١٥٨ ، ١٨٧ - ١٩٨ ؛ الطبرى ، ٩ ص ١٩٦ .

(٦) العيون والحدائق ، ص ٢٦٠ .

(٧) العبر ، ٣ ص ٣١٩ . أمر المنصور لعمومته ؛ لكل منهم بألف ألف «مليون» من بيت المال، وكان أول خليفة أعطى ألف ألف «مليون» . الطبرى ، ٩ ص ٣٠٨ س ٥ - ٧ .

(٨) الجهشيارى ، ص ١١٠ ؛ فتوح البلدان ، ص ١٥٣ - ١٥٤ ؛ معجم البلدان ، ٣ ص ١٠٩ .

لبعض الضياع ؛ كما أجرت اقطاعات من الأرض لمدة معينة، بنظام الإيجار أو الإيغار[1] ، وهو ما عرف بالأرض المغلة[2] ، أو حق رد بعض الضياع لأصحابها. واللافت أن بعض أصحاب الضياع من غير الأمويين ؛ كانوا يحولون[3] اسم ضياعهم على اسم عباسين كبار ؛ حتى لا تضيع من أيديهم .

فنذكر من الضياع التى آلت إلى العباسيين من الأمويين فى الشام: ضيعة لمعاوية فى البلقاء، اسمها: «بقبش»[4]، التى صارت لبعض أولاد المهدى. كذلك أخذت ضياع الوليد، التى كانت عند الساحل بأنطاكية[5]، وصارت هى الأخرى لأبناء المهدى، ثم انتقلت من بعدهم إلى الخليفة المتوكل. كما أخذت ضياع سليمان[6]، وضيعة الزيتونة لهشام [7]. بل إن إقطاع «بالس»[8] ، الذى كان لمسلمة بن عبد الملك، وحفر له نهر عرف باسمه؛ استولى عليه عبد الله بن على؛ لما كان بالشام، ثم أقطعه لمحمد بن سليمان، ثم صار للرشيد، ومن بعده المأمون .

---

(١) الماوردى ، الأحكام ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٢) لسان العرب ، ٨ ص ٢٣٠ .

(٣) الطبرى ، ٩ ص ٣٠٨ س ١٧ .

(٤) الجهشيارى ، ص ١١٨ .

(٥) فتوح البلدان ، ص ١٣٥ .

(٦) نفسه ، ص ١٥٣ - ١٥٤ ؛ معجم البلدان ، ٣ ص ١٠٩ .

(٧) الكامل ، ٥ ص ٢٩٣ .

(٨) الطبرى ، ٧ ص ٢٥ ؛ مروج ، ٣ ص ٢١١ .

(٩) الجهشيارى ، ص ١١٠ ؛ معجم البلدان ، ٢ ص ٣٢١ .

وهكذا يتبين ، أن هذه الضياع اعتبرت فى الدولة العباسية ميراثا للخلافة ؛ على أساس أن الخليفة العباسى؛ له وحده الحق فى أموال المسلمين ؛ وهو ما يتمشى مع العقيدة الجديدة التى صارت إليها الخلافة فى عهد العباسيين؛ بحيث صيرت فى شكل فقهى أن الخلافة ميراث ؛ وليست كخلافة الراشدين أو الأمويين . فيؤثر عن المنصور قوله [1]: إنا سلطان الله فى أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده، وأنا خازنه على فيئه ، أعمل بمشيئته ، وأقسمه بإرادته، وأعطيه بإذنه .

* * *

وقصارى القول إن ديوان الضياع العباسى؛ ظهر باسمه فى عهد المنصور؛ بمضمونه فى مصادرة الضياع الأموية فى الشام ؛ وأن العقيدة العباسية وقتذاك اعتبرت ضياع الأمويين فى الشام ميراثا للخلفاء العباسيين ؛ يجرى عليها ما يجرى على الميراث .

(١) الطبرى ، ٩ ص ٣١٠ .